

أدبيات الكلام في محاورات الأنبياء عليهم السلام: دراسة في بلاغة التخاطب
The Literature of Speech in Prophets' Dialogues -A Study in Rhetoric Pragmatics

د. سامية بن يامنة².

²**benyamnasamia@yahoo.fr**

المدرسة العليا للأساتذة بوهـران/ الجزائر

تاريخ النشر: 2020/12/10

١. أ.د. عبد الحليم بن عيسى.

abdelhalim2001@yahoo.fr¹

جامعة وهران 01 / الجزائر

تاریخ القبول: 2020/08/25

تاریخ الاستلام: 2020/06/13

ABSTRACT:

مُلْحَصُ الْبَحْثِ

This research paper discusses the discipline utterance principles which is embodied in the speech of the Holly Qur'an in general, and more specifically those of prophets. The prophets' speeches are cultivated by their moral features, and are characterized by special disciplinary properties, and thus became more effective and permeable in delivering the devine message with its different objectives.

The purpose is eventually to emphasize that the literature of speech are embodied in the speech act through concise utterance indicators, and well developed style properties, and that are not separate from the uttered words. We have chosen the Qur'anic speech because it is the perfect prototype from which.

Key words : Qur'anic speech, dialogue, disciplinary principle, the creation of speech, speech act.

تناقش وورقتنا البحثية مبادئ تأديب القول التي تجسدت في الخطاب القرآني على وجه العموم، وخطابات الأنبياء "عليهم السلام" على وجه الخصوص؛ إذ تهذبت سماتها الأخلاقية، وأضفت عليها خصائص تأديبية مميزة، فأوضحت أكثر تأثيرا ونفاذية في تبليغ الرسالة الربانية بمختلف غاياتها.

الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني ،التحاور، مبدأ التأدب..، تخليق الخطاب ،فعل القول.

¹ - المؤلف المرسل: عبد الحليم بن عيسى.

1- مقدمة:

ما زال القرآن الكريم معجزاً ومتحدّياً لأيّ بليغٍ على أن يأتي مثله، فكَلِّمَ قرآنُه وتَدَبَّرناه أدركنا أنّه ليس كمثله شيء. ولعلّ أهم سمة تُميّزه وتُعليه هي بلاغة خطابه التي تستثير العقول، وتستجلب القلوب دوماً لكي نتأمل ونتدبّر أكثر في صيغته التعبيرية وخصائصه الأسلوبية.

ولما كانت رسالة الأنبياء "علمهم السلام" مؤسسةً على الدعوة إلى الله تعالى وطاعته وعبادته، فإنّها قد ارتكزت على الخطاب البليغ والراقي الذي من شأنه أن يستلطف النفوس، ويقنع العقول حتى تنخرط عن طواعية واقتناع في عقيدة التوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَا نُزِّلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾¹، فحمل الخطاب القرآني بذلك سمات أدبية خاصة، أسهمت في تحقيق التفاعل الإيجابي مع المتلقي.

ومن الضروري أن نوّكد ههنا أنّ أدبيات الكلام تتجسّد في فعل القول ضمن مؤشّرات قولية محكمة، وخصائص أسلوبية مضبوطة، ليست متنصّلة عن الملفوظ، كما أنّها ليست نموذجية عامة، كما يعتقد الكثير من الدارسين المعاصرين ضمن الدراسات التداولية؛ بل تختلف من حيث طبيعتها وخصوصياتها بحسب الموضوع من جهة، وما يقتضيه الموقف بمختلف معطياته اللغوية والاجتماعية والثقافية، وحتى الإنسانية والعقدية بين مختلف المتلقين من جهة أخرى.

وإنما اخترنا الخطاب القرآني لأنّه النموذج الأمثل الذي يمكن أن نستمد منه مبادئ التأدّب في الكلام، وصدق الصنعاني إذ قال: «ولو تأمل الناظرون والمناظرون أدبيات القرآن وكيفية إقامة البرهان الذي هو في غاية البيان، لاستغنوا به عن تأليف اليونان، وتعلّم آداب البحث لفلان وفلان»².

2- الخطاب وتأديب القول:

ينبني التخاطب في أساسه على التبادل الكلامي بين طرفيّه؛ المخاطب والمخاطب، ويقوم على فكرة أو موضوع معين، ويجري وفق ملابسات مقامية معيّنة، لذلك كان لازماً أن يدخل ضمن عناصر تحديد الخطاب شيء آخر غير بنيته التركيبية؛ فهو وإن كان في أساسه صياغة لغوية فإنّه إلى جانب ذلك أداء كلامي مرتهن في غايته بالموقف الذي يُنتج فيه، ومن هنا تتوالج البنية اللغوية في فضاء التخاطبي فتصبح جزءاً لا يتجزأ عنه.

يعدّ "التأدّب في التخاطب" في أساسه كفاءة لغوية أخلاقية، تمكّن صاحبها من القدرة على التفاعل الناجح مع المتلقّي في مختلف المواقف، بإنتاج الخطاب الذي من شأنه أن يضمن هذا التواصل، ويشمل "التأدّب" كل المعارف العلمية والثقافية والاجتماعية والحضارية والأخلاقية التي تهذّب بدرجة أولى مخاطبات الأفراد لفظاً وفكراً وصياغةً، ثم تُترجمها سلوكياتهم ومعاملاتهم. ولكن يبقى الأهم ما يتحقّق في الخطاب؛ أي ما يتم بـ"اللغة" كمؤشّرات وصيغ لفظية، قال منصور الفقيه³:

لَيْسَ الْأَدِيبُ أَخَا الرَّوَّاءِ *** يَهْدِي لِلنَّوَادِرِ وَالْغَرِيبِ

وَلَشِعْرِ شَيْخِ الْمُحَدَّثِ *** مَنْ أَبِي نُوَاسٍ أَوْ حَبِيبِ

بَلْ ذُو التَّفَضُّلِ وَالْمَرْوَةِ *** وَالْعَفَافِ هُوَ الْأَدِيبُ

و"اللغة" بهذا المنظور؛ ليست مجرد أشكالٍ أو رموزٍ تقوم على وصف الوقائع، أو نقل الأخبار أو تقديم الطلبات؛ بل هي فعلٌ تأدبي اجتماعي وأخلاقي، يحمل من المقومات ما يضمن النجاح للتفاعل الكلامي ويحقق غايته.

ثم إنَّ الإنتاج الكلامي بهذا الطرح يُفصح عن الذات، ويكشف عن طبيعة الشخصية المتكلمة؛ تواضعاً أو تعقفاً أو تكبراً أو اضطراباً أو تفاهةً أو غير ذلك؛ فالإنسان هو القول؛ لكن قد يكون قولاً حسناً أو سيئاً.

ولا يتحقق التأدب في "الخطاب" بالتمكّن من اللغة وقواعدها الصوتية والصرفية والنحوية والبلاغية فحسب؛ بل يرتهن أكثر بإنتاج أشكال تأليف الأقوال بحسب الأحوال التي يجري فيها التخاطب، والمعرفة بالمقتضيات التعبيرية ذات الطابع التأدبي؛ أي توظيف المؤشّرات اللغوية والصيغ التعبيرية التي تحمل القيم الأخلاقية.. وقد تُدعم أكثر بالمعرفة بأقوال العرب وحكمهم وأمثالهم ومأثوراتهم وأخبارهم وتجاربهم.

3- طبيعة التخاطب في القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو كلام الله الأعظم الموجه إلى البشرية جمعاء، يدعو الناس إلى الصراط المستقيم، والمنهج القويم الذي ينظّم لهم حياتهم الدنيوية والأخروية، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾⁴، إنّه قَمّة في البيان والإفصاح والتأليف؛ إذ تجاوز الأصول التي يقصد إليها التفاسير والبلاغة من فن الخطب والرسائل والشعر؛ فقد أبهّر العارفين بشأن اللغة، فاعترفوا ببلاغته وإعجازه، لذلك كانت معجزته في لغته وأساليبه التعبيرية، حتى نعتته بعض المشككين بأنّه سحرٌ أو شعرٌ أو أساطيرٌ أوليين. وادّعى البعض وقال لو نشاء لقلنا مثل هذا، ولكن ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً؛ لأنّه أرقى وأعلى من كلامهم مهما حاولوا وكدّوا واجتهدوا؛ إنّه تحدّى لكل من يدّعي أنّه قادر على النسخ مثل القرآن الكريم، في كل زمان أو مكان.

إنّ القرآن الكريم تواصل مع الإنسان؛ يدعوه إلى الإسلام، ويهديه إلى الحق، ويداويه من كل أصناف أمراض الصدور، ويسطر كذلك أساليب الحوار وأدبياته المثلى التي قد يستعملها في مختلف مناحي الحياة. إنّه المدرسة الربانية السديدة التي تُعلّم كيفية تحاور الناس فيما بينهم؛ كيف يحاور المسلم المسلم، وكيف يحاور المسلم صاحب الكتاب أو الكافر، وكيف يكلم الابن أباه، والأب ابنه، وغير ذلك. إنّه المنهج التربوي القويم الذي يفصح عن أدبيات التخاطب التي تنظّم العلاقات

الأسرية والاجتماعية التي أضحت اليوم تفتقد إلى مبادئ وأصول المحاوراة المبنية على الاحترام المتبادل بين الطرفين.

وأساس التخاطب الذي يدعو إليه الله سبحانه تعالى عباده هو استعمال القول الحسن الذي يقوم على أدبيات خاصة، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁵؛ أي «قولوا لهم الطيب من القول، وحاورهم بأحسن ما تحبُّون أن تُحاورُوا به، وهذا كُلُّه حُضٌّ على مكارم الأخلاق. فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لِيَنَّا، ووجهه منبسطاً مع البرِّ والفاجر، والسُّتَيِّ والمبتدع، من غير أن يتكلَّم معه بكلام يظنُّ أنَّه يَرْضَى مذهبه؛ لأنَّ الله تعالى قال لموسى وهارون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾⁶. فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون؛ والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى بِاللَّيْنِ معه»⁷. فالقول الحسن لا يصدر إلاَّ عن الرجل الحسن الكَيِّس الصادق اللَّيِّن؛ إذ يحترم نفسه والآخر، فيحقق النفاذية لأقواله، والقبولية لسلوكاته.

وقد دعا الله تعالى المتقين والمؤمنين إلى القول السديد، قال تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾⁸، والسديد من القول يقتضي من المسلم توظيف الصواب والحق والطيب حتى يتحقَّق الاحترام والطمأنينة، عن طريق الصيغ التعبيرية التي تكرَّس ذلك.

وقد تجسَّدت هذه الأدبيات أكثر مع الأنبياء والرسل "عليهم السلام"، في دعوتهم مع أقوامهم، وفي أخلاقهم وسلوكاتهم ومعاملاتهم أيضاً، يقول ابن القيم: «وتأمل أحوال الرسل "صلوات الله وسلامه عليهم" مع الله وخطابهم سؤالهم: كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟ قال المسيح "عليه السلام": ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾⁹، ولم يقل: لم أقله، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب... ثم قال: وهذا من أبلغ الأدب مع الله في هذا المقام»¹⁰. وقد تجسَّدت هذه الأدبيات في خطابات الرسل مع ربِّهم وأقوامهم أيضاً.

4-مبادئ التأدب والتخليق في محاورات الأنبياء عليهم السلام:

إنَّ أساس الدعوة التي قامت عليها رسالات الأنبياء "عليهم السلام" اعتماد الخطاب باعتباره أرقى آلية وهبها الله تعالى للإنسان كي يتواصل مع غيره، ويحقِّق بها التعايش والتفاهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾¹¹؛ إذ يقتضي التعارف في جوهره التواصل الفعَّال الذي يستدعي توظيف الألفاظ والعبارات التي تقوم على أدبيات خاصة، وصدق رسولنا محمد "صلى الله عليه وسلم" إذ يقول: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»¹²، وقد سُئِلَتْ عائشة عن خُلُقِ رسول الله "صلى الله عليه وسلم" فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»¹³؛ أي أَنَّ الله

سبحانه وتعالى من أدبه، وقد أفصح رسولنا الكريم "صلى الله عليه وسلم" عن ذلك؛ إذ يقول: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»¹⁴.

ونستطيع أن نقف على مبادئ التأدب التي طبعت خطابات الأنبياء "عليه السلام" من خلال القرآن الكريم بما احتواه من محاورات الأنبياء مع أقوامهم وأبنائهم والمؤمنين والكافرين وغيرهم؛ إذ قام على توظيف المؤشرات اللفظية والصيغ التعبيرية التي تُفصح عن هذه المبادئ، وقد نركّز في هذه المناسبة على الأدبيات الآتية:

أ- القول اللين والحسن والطيب:

من الأدبيات الجليلة التي اتّسمت أقوال الأنبياء "عليهم السلام" اعتماد القول اللين والحسن، بما تطمئن إليه القلوب، وتستلطفه النفوس، ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾¹⁵، وهي دعوة صريحة لموسى "عليه السلام" وأخيه هارون كي يخاطبا فرعون بما يحقق الفعالية الحوارية المبتغاة بلينٍ ورفقٍ؛ فهما مع طاغية، ومع ذلك أمر الله تعالى «أن يُليّنَا القولَ لأعظم أعدائه وأشدّهم كُفراً وأعتاهم عليه، لئلا يكون إغلاظُ القول له -مع أنّه حقيقٌ به- ذريعةً إلى تنفيره وعدم صبره لقيام الحجّة، فنهأما عن الجائر لئلا يترتب عليه ما هو أكره إليه تعالى»¹⁶.

ويقتضي القول اللين والحسن الابتعاد على كل الصيغ التعبيرية التي تدل على الغلظة والعنف والمخاصمة، وهي سمة الأنبياء عليهم السلام، ومنهم نبيّنا محمد "صلى الله عليه وسلم" ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾¹⁷، فهو نبي الرحمة المهادة إلى العالمين، لذلك كان عفوا كريما على أصحابه وأمتة جمعاء.

ويستدعي هذا المبدأ توظيف المؤشرات القولية التي من شأنها أن تُظهر الوُدَّ والتَّعَفُّفَ والإخلاصَ للمتلقي، وبالأخص مع العبارات التي تُصنّف تداوليا ضمن "التوجيهيات Directifs"¹⁸.

و"التلطّف" في الكلام هو تأليفه بما يستعطف المتكلّم به القلوب، ويستميل به النفوس، ويؤنس له العقول، فقد «قال محمد بن علي "رضي الله عنهما": البلاغة قول مفقّه في لُطفٍ؛ فالمفقه: المفهم، واللطف من الكلام: ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبيّة المستصعبة، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجّة؛ فتخلص في نفسك من العيب، ويلزم صاحبك الذنب من غير أن تهيجه وتُقلقه، وتستدعي غضبه وتستثير حفيظته»¹⁹. وتقوم هذه القاعدة على التكلّم في أطف وجه، وأعذب عبارات، وألس أسلوب، قد يتحقّق بتوظيف الأقوال غير المباشرة التي تومئ إلى القصد المطلوب، فيكون المعنى مفهوما، واللفظ مقبولا، والغرض مضمونا.

أما "الإخلاص" فهو الإتيان بالكلام على أتم وجه دون مكابرة، أو طلب سمعة، أو مجاهرة برياء. في حين يقوم "التعفف" على استخدام العبارات التي تصون النفس، وتحافظ على ماء الوجه سواء للمتكلّم أو للمتلقّي. قد نمثّل لكل ذلك بما أورده صاحب عيون الأخبار حيث يذكر أنّه «لزم بعض الحكماء باب بعض ملوك العجم دهرأ، فلم يصل إليه، فتلطّف للحاجب في إيصال رقعة ففعل، وكان فيها أربعة أسطر:

السطر الأول "الأمل والضرورة أقدماني عليك"، السطر الثاني "والعُدْم لا يكون معه صبرٌ على المطالبة".

السطر الثالث "الانصراف بلا فائدة شماتة للأعداء". السطر الرابع "فإِذَا نَعَمَ ثمرةً، وإِذَا لا مريحةً". فلما قرأها وقع في كلّ سطرٍ زه؛ فأعطى ستة عشر ألف مثقال فضّة»²⁰، باستعمال العبارات التي تُعزّز النفس، وتلذّ لها الأذان، وهي كلها أخلاقيات لفظية أسهمت بفعالية تحقيق الغرض الإنجازي الذي ابتغاه المتكلّم من المتلقّي.

ب-الصدق في القول وتحري الحق:

تقتضي أدبيات التخاطب قول الحق القائم على الثبات والترتّب وعدم الاندفاع بما قد يتجاوز المطلوب، قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾²¹.

ويقتضي هذا المبدأ التحلي بالصدق في القول والعمل، قال تعالى: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾²¹، وقال جلّ جلاله: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾²²، وقال تعالى: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾²³، وقال تعالى: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا. وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾²⁴.

وتقتضي هذا المبدأ التأدبي ممارسة الصدق في الخبر، والعمل، ومطابقة القول للفعل²⁵، قد نصوغه في قاعدة: "كن صادقاً فيما تزعم وتقول وتفعل"، وصدق أحد الحكماء إذ قال: "لا تقول ما لا تعلم، ولا تتعاطى ما لا تنال، ولا يخالف لسانك ما في قلبك، ولا قولك فعلك"²⁶ ويقول العسكري: «وأما الضرورة إلى سوق خبر واقتصاص كلام، فتحتاج إلى أن تتوخّى فيه الصدق، وتتحرى الحق؛ فإنّ الكلام حينئذ يُمْلِكُك ويُخَوِّجُك إلى اتّباعه والانقياد له»²⁷. ومن هنا تبرز أهمية قاعدة "الصدق" في التفاعل الكلامي، والتي تؤمّن في بيئتنا العربية التفاهم والتوادر أيضاً، باعتبارها تستميل المتلقي وتدعوه أكثر للفهم والاقتناع.

و"الصدق" في معناه الأخلاقي الاجتماعي «هو أن يواطئ باللسان الذي هو الآلة المعبرة عما في الضمير مما يخبر به وعنه حتى لا يصير أمر ما في ضميره مسلوباً بلسانه، ولا مسلوباً في ضميره واجبا بلسانه فيزيل بذلك الأمور عن حقائقها، ويبطل أحكاماً يكون تعلقها به واجبا»²⁸.

وهنا نشير إلى أنّ من شيم العربي الاتصاف بالصدق في القول، والبعد عن أشكال الحيل والشطط والمراوغة. وهي سمة تقتضيها الفطرة العربية السليمة، وتفرضها العقيدة الإسلامية، وتقوم عليها الأعراف الاجتماعية العربية الأصيلة. وترتهن مقتضيات "الصدق التداولي" بأركان التخاطب ككل، وبالموقف الذي يجري فيه الكلام؛ قد نستأنس في ذلك مع الحجاج؛ إذ يروى أنّه «جلس يوماً لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقام رجل منهم فقال: أ صلح الله الأمير! إنّ لي عليك حقاً، قال: وما حقك؟ قال: سبّك عبد الرحمن يوماً، فرددت عنك؛ فقال: من يعلم بذلك؟ فقال: أنشد الله رجلاً سمع ذلك إلا شهد، فقام رجل من الأسرى فقال: قد كان ذلك أميها الأمير، فقال: خلّوا عنه. ثم قال للشاهد ما منّك أن تنكر كما أنكروا؟ فقال: لتقديم بُغضي فيك! فقال الحجاج: وليخلّ عنه لصدقّه»²⁹. باحترام قاعدة الصدق التداولي في هذا التخاطب، مما مكّن الشاهد من النجاة برقبته من سيف الحجاج. وهو صدق واقعي مؤصّل في البيئة العربية، تُمليه فطرة العرب الصافية التي تستدعي نقل الحقائق والتعامل معها دون تزيف أو انحراف أو مغالاة.

ولكن قد تُخترق قواعد الصدق التداولي لغرض إنجازي معيّن، قد نوضّح ذلك مع المدائني الذي قال: «دخل رجل على عيسى بن موسى وعنده ابن شُبْرَمَة فقال له: أتعرفه؟ وكان رُمي عنده بريّة قال: نعم، إنّ له بيتاً وشرفاً وقدماً، فخلّى سبيله، فلما خرج قال له أصحابه: أعرفته؟ قال: لا، ولكيّ أعلم أنّ له بيتاً يأوي إليه، وشرفه أذناه ومَنكُباه، وقَدَمُه هي قَدَمُه التي يمشي عليها»³⁰. باحترام قاعدة الصدق الكلامي، واختراق قاعدة الصدق العُرفي التداولي لغرض إنجازي خاص؛ وهو التضليل مع المتلقّي، ودفع الريبة عن المسؤول عنه، وبقصدين مختلفين بين المتلقي الأول، والمتلقي الثاني، وههنا يتبيّن أنّ قواعد "مبدأ التأدّب" قد تُخترق بحسب معطيات سياق الموقف الذي يُنتج فيه الخطاب، وهذا ما يدفعنا إلى الحديث عن القاعدة الموالية.

ج- مبدأ الجدل بالأحسن في القول:

يعتبر "الجدل" في أساسه محاوراً ومناقشة ومفاوضة بين متخاطبين، غايته إقناع الآخر بالقصد المطلوب، لكن قد يُلجأ فيه المخاصمة والمنازعة مما يؤدّي إلى الخصومة وعدم الاتفاق. ونجد هذين المفهومين في القرآن الكريم، وجاءت استعمالات مشتقات هذه المادة المعجمية تدل عليهما، لذلك دعا الله تعالى إلى ضرورة المجادلة بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾³¹، وهي دعوة صريحة لنبيينا محمد "صلى الله عليه وسلم" كي يحاور الناس بالأحسن حتى يستلطف العقول، وتلين النفوس، وتقتنع بالدعوة الإسلامية.

ولذلك فالجدل صنفان: محمود ومذموم؛ فالجدل المحمود ما قُصد به الحق، يقتضي في أساسه الالتزام بشروطه: كالعلم بموضوعه، والتحلي بأدبياته، أما المذموم فما قُصد به اللد والخصومة والعناد الناتج عن الجهل وسوء الأدب والأخلاق.

وحيثما نقرأ محاورات الأنبياء "عليهم السلام" نجدها تتمثل هذه الأدبيات، وقد نكتفي في هذه المناسبة بمحاورة النبي شعيب "عليه السلام" خطيب الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾³²، وهي محاورة حجاجية جادل فيها شعيب "عليه السلام" قومه بإحسان؛ إذ وظف موجّهات قولية استعطف من خلاله أمته بما يدعوهم إلى التوحيد، باستعمال لفظ "الأخوة" (أَخَاهُمْ)³³ والقومية (يَا قَوْمِ)، ويدلّان على اللين وشدة الارتباط بأمته، فلم يقل "يا كفار"، ولا "يا مجرمين"، أو غيرها من الصيغ التعبيرية التي قد تدل على الشدة أو الغلظة عليهم. ولكن قومه نعتوه بصفات تفيد اللد والخصومة؛ قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾³⁴، باستعمال كلمة "الملأ" التي تدل على جماعة من القوم فقط؛ بل ههنا ترتبط بالمستكبرين منهم عن الإيمان ومن اتّباع النبي "شعيب والذين آمنوا" فقط، فجادلوه بالإعراض، وتوعدوه إما بإخراجه ومن اتّبعه، أو بالعودة إلى ملّتهم. لكن نبي الله شعيب "عليه السلام" تأدّب معهم بالعبرة، ودعاهم إلى الحق بالبيّنة.

د-الجدية والابتعاد عن أشكال السوء واللغو في القول:

تقتضي أخلاقية التخاطب أيضا الجدّ والابتعاد عن أشكال اللغو والسوء في التخاطب بما قد ينتج عنه سوء الأخلاق، قال الشاعر³⁵:

لِلْجِدِّ مَا خُلِقَ الْإِنْسَانُ فَالْتَمِسَنَّ *** بِالْجِدِّ حَظَّكَ لَا بِالْهَزْلِ وَاللَّعِبِ

لَا يَلْبَثُ الْهَزْلُ أَنْ يُجْنِيَ لِصَاحِبِهِ *** ذَمًّا وَيُذْهِبَ عَنْهُ بَهْجَةَ الْأَدَبِ

فالجدّ في القول، والدقة في إصابة قصده، يضيفان تقرّباً جاداً وخالصاً بين طرفي التخاطب، كما يورّثان المتكلّم الهيبة والصرامة والوقار في إنتاج الفعل الكلامي ونجاحه.

والجدّ في التخاطب هو التعبير عن الموضوع بكل طيبة وإخلاص من غير مراوغة أو تضليل أو سلاطة أو هذر أو مباهاة أو مرء أو تهكم أو تجاوز للمقدار، قال تعالى: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾³⁶، والقول الطيب والحسن من هداية الله وتوفيقه. ويصرف الله تعالى المؤمن عن اللغو من الكلام أيضا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾³⁷، واللغو من الكلام ما سبيله أن يُطرح ويلغى ويُطرح، وهو

المنكر والفضول والباطل من القول، لذا قد نصوغ ههنا هذا المبدأ ضمن قاعدة "ليكن الكلام على قدر حاجته وقصده".

والإخلاص يورث صاحبه أيضا الوقار والحكمة، قال عليه الصلاة والسلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُخْلِصُ لِلَّهِ الْعَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا إِلَّا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى قَلْبِهِ»³⁸. وقال "صلى الله عليه وسلم" إذ سئل عن الإخلاص: «أَنْ تَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ تَسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتَ»³⁹.

والجدّ يورث الوقار والجمال للسان، قال «العباس بن عبد المطلب للنبي "صلى الله عليه وسلم" فيمّ الجمال؟ قال في اللسان... وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مهملّة»⁴⁰.

أما التكلّف في الكلام فهو الاضطراب في التعبير عن القصد، يقول أبو هلال العسكري: «فالتكلّف طلب الشيء بصعوبة للجهل بطرائق طلبه بالسهولة. فالكلام إذا جُمع وطلّب بتعب وجهد، وتُنوّلت ألفاظه من بُعدٍ فهو متكلّف؛ مثاله يقول بعضهم في دعائه: اللهم ربّنا وإلهنا، صلّ على محمد نبينا، ومن أراد بنا سوءاً فأحطْ ذلك السوء به، وأرسخه فيه كرسوخ السّجّيل على أصحاب الفيل، وانصُرنا على كلّ باغٍ وحسود، كما انتصرت لناقة ثمود»⁴¹. فمن البلاغة أن يعطى كل الموضوع حقّه من الكلام من غير تنقّص أو إزراء أو مبالغة، وبالتالي تحقيق المقصود.

خاتمة:

لعلّنا نكون قد لاحظنا من خلال هذه المطارحة العلمية لطبيعة التأدب في القول أنّ اللغة لا تكاد تتميز عن مبادئ ذات سمات أخلاقية خاصة، تنزل في الكلام كمؤشّرات وصيغ تعبيرية وسمات أسلوبية خاصة، تسهم بفعالية في إنتاجية اللغة، وتكرس الفعالية في التخاطب، بما يسهم في تحقيق المقاصد والإرادات المطلوبة. وقد نوضح هذه الفكرة بالنتائج الآتية:

-يمثّل الخطاب القرآني، وبالخصوص محاورات الأنبياء "عليهم السلام" النموذج الأرقى الذي يكشف بدقّة عن مبادئ التحاور التي قد تحكم القول بمختلف مقاماته وسياقاته التعبيرية.

-إنّ جوهر تخليق الخطاب يقوم على الانسجام بين أنساق القول وأدبيات البيئة الاجتماعية: فقوام الخطاب هو مبدأ الأخلاق نفسه الذي يستدعي من المخاطب أن يكون واعيا بخطابه أخلاقيا، وما ينطوي عليه من قوة نقّاذة لتذوق بنيات اللغة وأنساق القيم التي تملّحها العلاقات الاجتماعية بكل ما فيها من ضوابط، وبالتالي بسطها في الخطاب الذي يحقق ذلك.

-تكتسي "مبادئ التخليق في التخاطب" سمات خاصة، مؤسسة على ما يفصح عليه اللسان، تُغنيها المعطيات الثقافية والاجتماعية والعقدية المتنوعة المشارب. وهي متنوعة ومتعددة بحسب الموقف الذي يجري فيه التخاطب، باعتبار أنّ تحقيق الأفعال الكلامية يقتضي التأثير في المتلقّي وفق

سمات تخاطبية معينة تتجاوز الطابع الرمزي الشكلي للغة، لترتفع بقواعد تأدبية أخرى لها فعالية أكثر في تحقيق القوة الإنجازية المقصودة.

-تتأسس طبيعة معالجة علمائنا للتخاطب في البيئة العربية، على الكشف عن آليات أخلقة القول وقف ضوابط خاصة متكاملة ومنسجمة مع القواعد اللغوية، وكل ذلك بما يحافظ على الاستمرار الناجح والفعل في التفاعل الكلامي من جهة، وما يحقق الأغراض المقصودة من جهة أخرى. وقد أكدت معالجتهم في هذا السياق أنّ أساس وجود الإنسان في علاقاته وتفاعلاته هو اللسان؛ ف"الإنسان هو اللسان".

-إنّ الغاية الأساسية لمبدأ التأدب التخاطبي تتأسس على حفظ نظام القيم اللغوية الأخلاقية، مما يستدعي من المتكلم التمكن من قواعد التخاطب التي تحكم تناسق القول بالأخلاق، ضمن تفاعل تخاطبي مضبوط، يحمل من المؤشرات القولية التي تفصح عن ذلك.

الهوامش:

- 1-سورة الأنعام 48.
- 2-إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، الأمير الصنعاني، تقديم صلاح الدين مقبول أحمد، الصفاة الكويت الدار السلفية، ط1/1985، ص32.
- 3-جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق أبو الفضل عبد المجيد قطامش، بيروت دارالجيل، ط2، (د.ت)، 1/ص4.
- 4-فصلت (3).
- 5--البقرة (83).
- 6-طه (44).
- 7-الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، لبنان مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، ط1/2006، ج2، ص23.
- 8-النساء (9).
- 9-المائدة (116).
- 10-الضوء المنير على التفسير، ابن القيم الجوزية، الرياض مؤسسة النور للطباعة والنشر والتوزيع بالتعاون مع مكتبة دارالسلام، (د.ت)، ج2، ص473.
- 11-الحجرات (13).
- 12-وفي رواية أخرى "مكارم الأخلاق"، موسوعة الحافظ ابن حجر الحديثية، موسوعة الحافظ ابن حجر الحديثية، جمع وإعداد أحمد الحسين الزبيري، بريطانيا مجلة الحكمة، ط1/2002م، ج3، ص399.
- 13-المرجع نفسه، موسوعة الحافظ ابن حجر ص399.
- 14-المرجع نفسه، ص399.
- 15-طه (44-42).
- 16-الضوء المنير على التفسير، ابن القيم، ج4، ص207.
- 17-آل عمران (159).
- 18-Voir Searle, sens et expression études de théorie des actes de langage, Paris les éditions de minuit, 1982., P:53.
- 20-الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2، ص57.
- 21-عيون الأخبار، ابن قتيبة، الدنوري، القاهرة دار الكتب المصرية، ط2، 1996، ج3، ص121،

- 22-النور (15-16).
- 23-مريم (41).
- 24-مريم (56).
- 25-مريم (54).
- 26-مريم (49-50).
- 27-اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المغرب المركز الثقافي العربي، ط1/1998. ص. 251.
- 28-لُبَاب الآداب، الأمير أسامة بن منقذ (ت584هـ)، تحقيق د. أحمد شاكر، القاهرة منشورات مكتبة السنة، ط1/1987. ص. 228.
- 29-الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص. 153.
- 30- كتاب تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، ابن سينا، الرسالة الثامنة في "العهد"، القاهرة دار العرب للبستاني، ط2، ص. 143-144.
- 31- النحل (225).
- 32-الأعراف (85).
- 33-لفظ أخاهم نجدها في محاوره هود "عليه السلام" مع عاد، وصالح "عليه السلام" مع ثمود.
- 34-الأعراف (88).
- 35- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذهن والهائجس، ابن عبد البر النمري القرطبي (ت463)، تحقيق محمد مرسى الخولي، ج2 ص. 572.
- 36- الحج (24).
- 37-القصص (55).
- 38-إحياء علوم الدين، الغزالي، ، بيروت دار ابن حزم، ط1/2005م. ص. 1747.
- 39- المرجع نفسه، إحياء علوم الدين، ص. 1752.
- 40-البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة مكتبة الخانجي، ط1/1989، ج 1، ص. 170.
- 41-الصناعتين الكتابة والشعر، ص. 50.